اثر الحروب

في الامم القديمة والحديثة

اسبانيا

ليست اسبانيا هذا الزمان هي نفسها اسبانيا سنة ١٤٩٣ التي خصّ بها البابا المعاصر لها نصف بحور الدنيا . فان اسبانيا القديمة نالت من زمان طويل باعباء التعصب الديني بعد ان امتدّ رواقها بحراً وبرّاً . اما الآن وقد زال عن اسبانيا الحديثة آخر اثر من آثار الاستعمار فانها آخذة في التجدد شيئاً فشيئاً بما تبدي من الهمة في السعي والاقتصاد في الرزق

قال فارس اسباني في زمانه « هذه تشطيلة تصنع الرجال ثم تنفقهم » . وقد علّق احد مشاهير الكتاب على هذه العبارة قوله « ان في هذه العبارة البديعة الهائلة خلاصة تاريخ اسبانيا » . وقال آخر « ان كلّ ما يقتل روح الرجولة وحب الحرب والاستقلال في الشبيبة الاسبانية قد حدث . فان الحرب وحدها اذا طالت واشتدت تكفي لترك جعبة الامة خاوية من نسلها القوي وان امة الحرب اليوم هي امة الاشغال غداً وقد دامت روح الحرب في اسبانيا ولازمها السعد في فتوحاتها الف سنة وزيفاً فلم يخضع الرومان بلاد ايبيريا الاّ بعد بذل مهج الرجال وانفاق بدرات الاموال وبقي الاسبان جنوداً اشداء حتى القرن السادس عشر . لكن حرب هولندا في القرن السابع عشر اضنتهم وفي اواسطه انهزم مشاة الاسبان في روكروي — وكانوا خيرة مشاة اوربا — امام الفرنسويين ومن ذلك الوقت آذن مجد اسبانيا الحربي بالزوال

ولا يعلم هل نال اسبانيا معظم الخسارة من تشتيت شمل رجالها الاقوياء في مستعمراتها الكثيرة او من حروبها الدائمة في اوربا او من اعمال مجلسها الديني المسمّى بديوان التفتيش . فان هذا الديوان افضى الى افناء العقول المستقلة والمستنيرة فيها وكان اشدّ وطأة على قومها من سائر دواوين التفتيش في البلاد الاخرى

على ان دوام السلام في اسبانيا وانقطاع اسباب الخسارة بزوال مستعمراتها اخذ يجدد حياة البلاد المالية وينعش روح الصناعة والتجارة كما هي الحال في فرنسا ولا بدّ ان يعقب ذلك ارتقاء طبيعي وادبي

المانيا

ربما نال المانيا ما نال فرنسا من حروب لويس الرابع عشر ونابليون الاول والثالث .

ولكن لما كان الكتّاب الالمان اقل صراحة وبياناً من الفرنسويين عند البحث في مطامعهم القومية لا نجد فيما كتبوا سوى القليل عمّا اصاب بلادهم من الخسارة في الحروب . وزد على هذا كلّهِ ان نظام المانيا الحديثة المؤلف من حكومة اشتراكية تحت اشراف عسكري افضى الى تصغير الفروق الظاهرة بين الشعوب التي تتألف منها فصار لكل فرد مكان يصعب عليهِ ان يهبط الى ما دونهُ او ان يصعد الى ما فوقهُ . ثم ان التعليم الالزامي العام فنيّاً كان ام عادياً يمكن كلّ فرد من افراد الامة من تحصيل معيشتهِ . ويطلب من الالماني ان يكون جندياً ويدفع الضرائب ويحفظ لسانهُ . وهي واجبات بسيطة لا تضطر صاحبها الى السعي والابتكار . والخدمة الالزامية في الجيش توجب على كلّ فرد الخضوع لرئيسهِ . فهو بين امرين فاما التسليم بحالة محتملة بعض الاحتمال واما العصيان وما يجرّهُ من الشقاء او الموت . وعندهم اشكال متعددة من التأمين ضدّ الفقر والبطالة والشيخوخة تقي الفرد شرّ الفاقة والاعواز . وان المصاعب التي يجدها العاميّ امامهُ اذا شاء دخول المدارس الجامعة ليصير من العلماء او المدارس الحربية للانتظام في سلك الضباط انما هي حاجز حصين يمنع امل الارتقاء الاّ عن ذوي المواهب . ولا يجتاز الحواجز التي بين طبقة وطبقة الاّ اهل النبوغ في العلم وتحصيل المال . فنظام مثل هذا يقلّل بلايا الفقر ومصائبهُ ولكنهُ يسدّ باب الابتكار في وجه الجمهور ويقيد الحرية الشخصية بنظام موضوع . فالذين يحسبون تسلّط المبادئ العسكرية اعادةً للعجلة يرون ان تجدّد تلك المبادئ في المانيا من اسوإ العواقب الناتجة عن التقدم العلمي الحديث

وقد افضى انتصار المانيا على فرنسا سنة ١٨٧١ الى تعزيز الروح الحربية في المانيا وجعل انتشار ذلك الروح يظهر بمظهر جزء جوهري من نموّ الامة في التجارة والصناعة . وهذا ما لا بدّ ان يؤدي الى كارثة طامة في النهاية سواء انتصرت المانيا في حربها مع الحلفاء ام لم تنتصر . واذا تدبرنا كل ما اصاب فرنسا والمانيا من نتائج الحرب السبعينية وجدنا ان سياسة الدم والحديد التي جرى عليها بسمرك وخلفاؤهُ اضرت المانيا اكثر ممّا اضرت فرنسا

الكنترا

طالما ترددت الشكوى في الكنترا قبل الحرب من انحطاط الامة الانكليزية . ولكنها شنشنة الصحف الانكليزية في اشهر الصيف اذ الاخبار قليلة . فقال الشاكون في شكواهم ان صغار المالكين آخذون في التناقص يوماً فيوماً . وان زوايا لندن ومنشستر ولفربول ممتلئة باصناف الكروب والوزايا من صغار أولاد يشغّلون ونساء يعملن باجور طفيفة واطفال

يموتون بالامراض وسوء التغذية وسكارى يترنحون وشيوخ يتضورون جوعاً . وان الطبقات العليا مؤلفة من اناس لا هم لهم الا اللهو والقصف وعندهم ان لعب الكريكت اعظم شأناً من الاحتفاظ بالامبراطورية

ولا ريب ان كثيراً من هذه الشكاوي من قبيل انتقاد الانسان لنفسه وهو من شروب السلبية عند اغنياء انكلترا الذين لا عمل لهم . وبعضها يرمي الى غرض سياسي هو تسوئة اعمال الوزارة القائمة . ولكن لا مشاحة في ان وراء ذلك كله شيئاً من الحقيقة . فان انكلترا اتت في القرن الماضي فعالاً عظيمة عاد كثير منها بالخير الدائم على العالمين . وقد نشرت افكارها وعدلت اعمالها وقوّت خلقها الى حد لم يستطعهُ احد غيرها . وضرب رجالها في انحاء الارض حيثما يستطيع الاحرار السكنى وشيدوا معاهد حرة تشدّها لحمة التعاون والتساهل ومدت رواق السلام وما يجمعهُ من النظام والادب في كل بلاد همجية ومزجتهُ بما يكفي من الحرية ليجعل ملكها دائماً . ومكنت ابناءها من المتاجرة مع الهمج والكسب منهم

فرب سائل يسأل وما الذي انفقتهُ انكلترا في هذا السبيل . فان جهداً عظيماً مثل هذا يفضي الى خسارة عظيمة في قوتها . فاقول ان هذه الخسارة لا تبدو لنا في انحطاط كفاءة ساستها وعلمائها بل في قلة عددهم وازدياد عدد الرجال الذين لا ينفعون الامبراطورية . وكثير من قوة انكلترا انتقل الى اميركا والى ملحقاتها التي تحكم نفسها والتي لا يصح ان تسمى فيما بعد مستعمرات . وهذه القوة نشرت التقاليد الانكليزية في بلدان صغيرة نشيطة سلمت من اعظم العيوب التي تصم انكلترا وهو عيب جعل الامتيازات بين الطبقات قانوناً معمولاً بهِ . ولكن الانكليزي الانكليزي حيثما حل فلا يصح لذلك ان يحسب ذهابهُ الى كندا واستراليا ونيوزيلندا وجنوب افريقية خسارة لانكلترا

اما الهند فليس امرها واضحاً بمثل هذا الوضوح ولطالما تساءل الناس عما صنعت انكلترا للهند . وعندي انها صنعت الشيء الكثير وعملها يزداد تحسناً بالاختبار ويرفع شأن البلاد على مرّ الايام . ولكن ما الذي صنعت الهند لانكلترا . هذا سؤال قلما خطر ببالي . واقول جواباً عنهُ ان الهند زادت ثروة الانكليز او الجزء الصغير منهم الذي يشتغل بالتجارة الاجنبية ولكن الرجال الذين اغنتهم الهند كبيت ساسون الذي يتاجر بالافيون ليسوا عادة ممن يشاطرون الامة ارباحهم تلك الامة التي تضرب عليها الضرائب لينتفي غيرها . وقد اعطت الهند عملاً لالوف من الشبان الانكليز ولكنها ضمت رفات الوف من رجالهم اهل المروءة والهمة العالية الذين كان فقدهم خسارة على بلادهم . قال لي ضابط انكليزي ذات يوم

« رأيت رجالاً يموتون في الهند موت الذباب ولو عاشوا لكانوا من بناة السلطنة ورافعي عمدها »

على ان الوسائل التي توسلت بها انكلترا لتوسيع سلطتها ليست كلها مما يستطيع الانكليزي الحرّ دفاعاً عنهُ . فان بعضها جرّ عليها سوء السمعة واتخذهُ اعداؤها حجة عليها . وقد سميت الحرب الحاضرة « بالانتقام من بيكونسفيلد » . والحق يقال انهُ لولا تلاعب بيكونسفيلد بالشؤون الامبراطورية في زمان كان فيهِ المجد غاية يلا التفات الى الوسائل المؤدية اليهِ لما خرجت من البلقان تلك الشرارة التي اضرمت النار في جوانب اوربا كلها

ان انكلترا غنية اذا نظرتَ اليها من فوق . ولكن ثروتها انحصرت في ايدٍ قليلة بالتقليد وتمييز نشة عن نشة قانوناً حتى باتت موارد انكلترا في قبضة الدوقات اصحاب الاطيان واللوردات اهل التجارة والمال . فان ربع سكان البلاد لا يملكون شيئاً وعشرهم في فقر مدقع على الدوام وشُلحق و يلات الحرب الحاضرة ومصائبها عشراً آخر بهم . قال فرنكلن « ليس بين الاعمال عمل تساوي ارباحهُ نفقة الاكراه عليهِ بقوة الجيوش » . ولكن ارباح عمل مثل هذا تعود على القلائل الذين لا يستحقونها . اما نفقتهُ دماً وذهباً فتقع على جمهور الامة

ان حكومات الارض تجازف في سبيل الاستعمار والتبسط ولكن الشركات التجارية والصناعية وغيرها هي التي تجني الربح . وهذا خطأ لا يغتفر . فان ما تنفقهُ الامة يجب ان يُعادَل بما تربحهُ . ولا يكفي ان نقدر خرجنا من جهة ودخلنا من الجهة الاخرى في حين ان الخرج يخرج من مال الامة والدخل يدخل جيوب افرادها . واعلم ان مال الامة الذي يحوّل الى جيوب الافراد انما هو الامتياز بعينهِ والامتياز نقيض العدل وعدو الديموقراطية وهو يخرق مبدأ المساواة امام القانون . قال الاستاذ آرثر طمسن « بعض الحروب لازم وبعضها قد يكون صواباً وربما كانت كذلك الآن ولكن هذا الرأي لا يغير هذه الحقيقة وهي ان كل حرب طويلة تشترك فيها الامة تضعف النسل لان صفة النسل تتوقف في كل حال على الرجال الذين يبقون بعد الحرب . ولا تموت الامم الاَّ من قلة الرجال . أليس عندنا دلائل تدلّ على زيادة الضعفاء . يقولون هنا (في انكلترا) اننا لا نستطيع تخفيف ما يوازي مثقال ذرة من قوتنا الحربية الوطنية اذ لا مناص لنا من الاحتفاظ بسيادتنا مهما كانت النفقة ما دمنا مضطرين الى اطعام تلك الملايين الكثيرة . ولكن أليس هذا القول سفسطة ؟ اوليس اشتغالنا بالامور الحربية هو سبب شقائنا الوطني ؟ انّا اذا اقتصدنا بعض المال من نفقتنا الحربية فلا يتعذر علينا عمل في سبيل اصلاح حالنا الاجتماعية »